



الشام كلمة سريانية تعود إلى سام بن نوح الذي استوطن تلك البلاد بعد الطوفان. هذه الأرض تشمل اليوم سوريا (الأصل سيريا أي بلد السريان) و لبنان و فلسطين و الأردن. حكم الساميون الشام منذ عهد نوح إلى اليوم، و عرف عنهم شدة البأس في القتال و حب السفر و سرعة التعلم. و ظلت لغتهم السريانية -بفضل الآراميون و الفينيقيون- اللغة العالمية (أي كإنكليزية اليوم) سبعة عشرة قرون من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي، و لا يعرف أية لغة أخرى دامت كل ذاك العهد. و اخترعوا لها أبجدية أصبحت أساس الأبجديات العالم كله. و قد عرف عن أهل الشام تمسكهم الشديد بلغتهم السريانية حتى إذا جاء الإسلام رحبوا به بشدة و ساعدوا العرب ضد الروم، ثم أنهم تحولوا جميعاً إلى الإسلام في سنتين قليلة و استبدلوا لغتهم السريانية باللغة العربية فسادت اللغة العربية على سائر اللغات الأخرى لعدة قرون. و من المشهور في التاريخ ما كان من الاستقبال الحافل الذي استقبل به أهل الشام عمر و ما كان من أن سموه "الفاروق" و هي كلمة سريانية تعني "المنقذ". لذلك وجد الإسلام بيئة خصبة في تلك المناطق خاصة بالشام حيث بلغت العصبية الإسلامية تحت حكم بنى أمية ذروتها.

ولم يمض 26 سنة على فتح دمشق حتى أصبحت عاصمة الخلافة الإسلامية. و كان أهل الشام أشجع الناس في القتال و من حاز على ولائهم فاز فكانوا سبب سيادةبني أمية فذلك سبب قول علي (رضي الله عنه) لشيعته من الفرس و أهل العراق: "من فاز بكم فاز بالسهم الأحذى" و قوله "و الله! لوددت لو أني أقدر أن أصرفكم صرف الدينار بالدراريم عشرة منكم برجل من أهل الشام!". و لم ينجو بلد من الفتنة التي تلت مقتل عثمان إلا الشام فكان ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "ألا و إن الإيمان حين تقع الفتنة بالشام". على أنه لما مات يزيد و رفض ابنه معاوية الثاني أن يستلم الحكم بايعت البلدان عبد الله بن الزبير (رضي الله عنه) حتى إذا مات معاوية و أتى من بعده مروان بن الحكم (رضي الله عنه) لم يبقى من

البلدان أحد لم يبايع ابن الزبير (رضي الله عنه) إلا جزءاً من الشام فالتحق جيش الشام مع جيش يفوقه أضعافاً مضاعفة قرب دمشق فانتصر أهل الشام ولم تمض إلا سنتين قليلة حتى حكموا سائر الأقطار الإسلامية. ثم قاموا بالفتورات العظيمة وامتدت دولتهم من غرب الصين إلى أواسط فرنسا (أي أكبر دولة شهدتها التاريخ حتى ذلك الوقت) دون أن تضعف سيطرة الخلافة في دمشق على الأطراف وظل الإسلام نقباً من الحركات الراغبة في تحريفه على أنه ما إن انهارت الدولة الأموية وبدأت الدولة العباسية حتى عادت العصبية الشعوبية واشتدت وكثرت الحركات الهدامة كالزنادقة والشعوبية والرافضية... إلخ، وضعف الدولة وأخذت تفتت حتى في زمن الخلفاء الأقواء كالرشيد.

وقد خرج من الشام الكثير من الفقهاء والمحاذين الكبار أمثال عمر بن عبد العزيز والإمام النووي وشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن كثير وكثير من أمثالهم. كما قد وعد الله تعالى وعده الحق بأن طائفة من تلك الأمة باقية على الحق منتصرة في دمشق و القدس حتى مجيء الساعة ويسمون بالأبدال كلما مات منهم أحد أبدل الله بآخر. وأخبرنا الحبيب المصطفى (عليه الصلاة والسلام) أن الخلافة ستعود إلى دمشق وسيحكم المهدى (محمد بن عبد الله) منها ويفود العرب للنصر على الروم في حرب ضروس عظيمة تسمى الملحة الكبرى لم يشهد التاريخ مثلها أبداً. ثم ينزل المسيح (عليه السلام) على المنارة البيضاء شرقي دمشق فيكسر الصليب ويقتل المسيح الدجال (أي مهدي الروافض) ويدعو للإسلام فيؤمن له من في الأرض جميعاً. ولولا فضل الشام في الإسلام لما خصها الله بكل هذا.

و فيما يلي غيضٌ من فيضٍ فيما ورد عن الشام في الآيات والأحاديث الشريفة:

قال أكثر المفسرين في قوله تعالى: {المسجد الأقصى الذي باركنا حوله} أن البركة تشمل بلاد الشام بأكملها بدليل قول رسول الله (ص): "إن الله تعالى بارك ما بين العريش والفرات و فلسطين، و خص فلسطين بالتقديس".
(رواية ابن عساكر)

و قال كثير من المفسرين في قوله تعالى: {و التين و الزيتون و طور سينين و هذا البلد الأمين}؛ التين بلاد الشام (أي سوريا)، و الزيتون بلاد فلسطين {و طور سينين} الذي كلام الله موسى عليه، {و هذا البلد الأمين} مكة.

أما عن الأحاديث النبوية الشريفة فقد روى البخاري
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمِنِنَا.

و روى مسلم

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "... إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءَ شَرْقِيَّ دِمْشَقَ بَيْنَ مَهْرُودَيْنِ وَاضِعًا كَفِيَّهُ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكِيْنِ إِذَا طَلَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَالْأُلُوْلِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حِينَ يَنْتَهِي طَرْفُهُ"

و أغلب الظن أن هذه المنارة هي المنارة البيضاء في الجامع الأموي. و الحديث يؤكد على أن عاصمة المهدى ستكون في دمشق بإذن الله.

و روى أبو داود

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمُلْحَمَةِ بِالْغَوْطَةِ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا دِمْشَقُ مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ. [و الغوطة هي البساتين المحيطة بدمشق]
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ سَتَكُونُ هِجْرَةً بَعْدَ هِجْرَةِ فَخِيَارٍ أَهْلِ الْأَرْضِ الْزَّمْهُمْ مُهَاجِرٌ إِبْرَاهِيمَ وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ شِرَارٌ أَهْلُهَا تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوْهُمْ تَقْدِرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ وَتَحْشِرُهُمْ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ.

قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنُدًا بِالشَّامِ وَجُنُدًا بِالْعَرَاقِ قَالَ أَبْنُ حَوَالَةَ خَرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ فَقَالَ عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ فَأَمَّا إِنْ أَبْيَتُمْ فَعَيْنِكُمْ وَاسْفُوا مِنْ عُدُوكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ.

وَرَوَى التَّرمذِيُّ

قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرٌ فِيهِ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُؤْلِفُ الْقُرْآنَ مِنْ الرِّقَاعِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَوْبٌ لِلشَّامِ فَقُلْنَا لَأَغِيَّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بِاسْتِطَاعَةٍ أَجْنِحُهَا عَلَيْهَا.

وَرَوَى الدَّارَمِيُّ

عَنْ أَبِي فَرْوَةَ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَأَلَ كَعْبَ الْأَحْبَارَ كَيْفَ تَجُدُّ نَعْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ فَقَالَ كَعْبُ نَجِدُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُولُدُ بِمَكَّةَ وَيُهاجِرُ إِلَى طَابَةَ وَيَكُونُ مُلْكًا بِالشَّامِ.

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَّامَةَ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوْلُ بَدْءٍ أَمْرِكَ قَالَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَيُشَرِّي عِيسَى وَرَأَتِ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ.

وَأَخْرَجَ أَبْنَ مَاجَةَ وَالْحَاكِمَ وَصَحَّحَهُ وَأَبْنَ عَسَكِرَ عَنْ أَبِي هَرِيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِذَا وَقَعَتِ الْمَلَاحِمُ خَرَجَ بَعْثًا مِنَ الْمَوَالِيِّ مِنْ دِمْشِقَ هُمْ أَكْرَمُ الْعَرَبِ فَرَسَا وَأَجْوَدُهُمْ سِلَاحًا يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِمْ هَذَا الدِّينَ". وَأَخْرَجَ السِّيَوْطِيُّ وَالْطَّبْرَانِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

عَقْرُ دَارِ الإِسْلَامِ بِالشَّامِ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدَ فِي مَسْنَدِهِ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرٌ فِيهِ لَا يَزَالُ أَنْاسٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ يَرْفَعُ اللَّهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فَيُقَاتِلُونَهُمْ وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَلَا إِنَّ عَقْرَ دَارَ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِبِهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَبْنِ حَوَالَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَيَكُونُونَ جُنُدًا بِالشَّامِ وَجُنُدًا بِالْيَمَنِ فَقَالَ رَجُلٌ فَخَرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْكَ بِالشَّامِ عَلَيْكَ بِالشَّامِ ثَلَاثًا عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَمَنْ أَبَى فَلَيُلْحَقُ بِيَمَنِهِ وَلَيُسْقِي مِنْ عُدُورِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ قَالَ أَبُو النَّضْرِ مَرَّتَيْنِ فَلَيُلْحَقَ بِيَمَنِهِ. ذُكِرَ أَهْلُ الشَّامِ عِنْدَ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِالْعَرَاقِ فَقَالُوا الْعَنْهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ لَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ وَهُمْ أَرْعَوْنَ رَجُلًا كُلُّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ رَجُلًا يُسْقَى بِهِمْ الْغَيْثُ وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمْ الْعَذَابُ.

وَفِي سَنْدِ هَذِهِ الْحَدِيثِ ضَعْفٌ. وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهُ مَحدثَ الشَّامِ الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَادِرِ الْأَرْنُوْطَ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ لَيْسَ لِلْأَبْدَالِ عَدْدٌ مَحْدُودٌ وَإِنَّمَا لَا يَعْلَمُ عَدْدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدَ أَيْضًا:

أَنَّ أَبَا ذِرَّ الْعِفَارِيَّ كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ حِدْمَتِهِ أَوَى إِلَى الْمَسْجِدِ فَكَانَ هُوَ بَيْنَهُ يَضْطَجِعُ فِيهِ فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ لَيْلَةً فَوَجَدَ أَبَا ذِرَّ نَائِمًا مُنْجَدِلًا فِي الْمَسْجِدِ فَنَكَتَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِجْلِهِ حَتَّى اسْتَوَى جَالِسًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أَرَاكَ نَائِمًا قَالَ أَبُو ذِرَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَيْنَ أَنَّمُ هَلْ لِي مِنْ بَيْتٍ غَيْرُهُ فَجَلَسَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَخْرَجْتُكُمْ مِنْهُ قَالَ إِذْنَ الْحَقِّ

بِالشَّامِ فَإِنَّ الشَّامَ أَرْضُ الْهِجْرَةِ وَأَرْضُ الْمَحْشَرِ وَأَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَكُونُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهَا قَالَ لَهُ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَخْرَجْتُكَ مِنَ الشَّامِ قَالَ إِذْنْ أَرْجِعُ إِلَيْهِ فَيَكُونُ هُوَ بَيْتِي وَمَنْزِلِي قَالَ لَهُ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَخْرَجْتُكَ مِنْهُ الثَّانِيَةَ قَالَ إِذْنْ أَخْذَ سَيْفِي فَأَقْاتَلَ عَنِي حَتَّى أَمُوتَ قَالَ فَكَشَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَثْبَتَهُ بِيَدِهِ قَالَ أَذْلُكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ قَالَ بَلَى يَأْبِي أَنْتَ وَأَمِّي يَا أَبِي اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنَقَّدُ لَهُمْ حَيْثُ قَادُوكَ وَتَسَاقُ لَهُمْ حَيْثُ سَاقُوكَ حَتَّى تَقَانِي وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ.

[الشام أرض المحشر والمنشر: أي البقعة التي يجمع الناس فيها إلى الحساب، وينشرون من قبورهم ثم يساقون إليها، وخصت بذلك لأنها الأرض التي قال الله فيها {باركنا فيها للعالمين}، وأكثر الأنبياء بعثوا منها فانتشرت في العالمين شرائعهم، فناسب كونها أرض المحشر والمنشر]

عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أنا نائم رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهب به فأتبعته بصرى فعمد به إلى الشام ألا وإن الإيمان - حين تقع الفتنة - بالشام.
رواه أحمد و الطبراني و رجال أحمد رجال الصحيح.

و قد حض رسول الله (ص) أصحابه على الهجرة للشام رغم علمه بكراهتهم للسكن بها لأن العرب كانت تألف الزراعة و تحب الرعي، و الشام أرض زراعة و صناعة فكان مما قال:

عليك بالشام؛ هل تدرؤن ما يقول الله؟ يا شام! يدي عليك، يا شام! أنت صفوتي من بلادي، أدخل فيك خيرتي من عبادي، أنت سيف نقمتي و سوط عذابي، أنت الأندر و إليك المحشر، و رأيت ليلة أسرى بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة؛ قلت: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام، و بينما أنا نائم رأيت كتاباً احتلس من تحت وسادتي فظننت أن الله تخلى من أهل الأرض فأتبعته بصرى فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام، فمن أبى أن يلحق بالشام فليلحق بيمنه [أي بلاد اليمن] و ليسق من غُدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام و أهله.

إنها ستفتح الشام فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، فإنها خير مدائن الشام و هي مقيل المسلمين من الملاحم، و فسطاط المسلمين بأرض فيها يقال لها الغوطة [الغوطة هي البساتين المحيطة بدمشق]، و معقلهم من الدجال بيت المقدس، و معقلهم من ياجوج و مأجوج الطور.

و يقول علي (ر) لشيعته من أهل العراق: و الله! لوددت لو أني أقدر أن أصرفكم صرف الدينار بالدرهم عشرة منكم برجل من أهل الشام! فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين! أنا و إياك كما قال الأعشى:

علقتها عرضاً و علقت رجلاً * غيري و علقت أخرى غيرها الرجل
و أنت أبها الرجل علقنا بحبك و علقت أنت بأهل الشام و علقت أهل الشام بمعاوية.

المصدر: رابطة أدباء الشام

المصادر: